

المسألة الاجتماعية من وجهة نظر إسلامية

للمستاذ عبد المحليم عويس

تمهيد :

ونضيف الى ذلك ان طبيعة الاسلام كدين لا يفصل بين آثار العقيدة والشرعة ، ولا بين خير الفرد وخير المجتمع ، ولا بين القانون وروح القانون .. هذه الطبيعة الشاملة في هذا الدين تجعل من الصعب — في ظل تطبيق تعاليمه — نشوء ظواهر ، كظواهر الصراع بين الفرد والمجتمع ، او الصراع بين الطبقات ، او غير ذلك من الظواهر التي ابرزت ما يعرف باسم (المسألة الاجتماعية) ، والتي جعلت هذه القضية تأخذ من جهود الانسان الحديث القسط الكبير .

انه ليس من السهل الزعم بأن هناك تحديدا ثابتا لمصطلح انساني كمصطلح المسألة الاجتماعية ، كما انه ليس من السهل تحديد معلم زمني موثوق به لنشأة مصطلح من هذا النوع ، حتى وان كان هذا المصطلح قد تطور ، وأصبح يرمز الى قضية كبرى من قضايا الانسان في العصر الحديث .

ان الاسلام — في حقيقته — « بناء تام الصنعة ، وكل اجزائه — من عقائد وعبارات ومعاملات اجتماعية واقتصادية — قد صيغت ليتم بعضها بعضا ، فليس هناك شيء لا حاجة اليه ، وليس هنالك نقص في شيء ، فننتج عن ذلك — اى عن هذه الطبيعة في الاسلام — ائتلاف متزن مرصوص (1) » لا يجوز تقطيعه .

ومع اننا سنحاول الوصول الى تحديد نسبى لهذا المصطلح ، والى الوقوف عند معلم زمني تقريري لنشأته كتعبير عن قضية انسانية ، الا اننا نجد من الضروري التنبيه — في بداية حديثنا — الى ان هذه القضية — بمفهومها الاصطلاحي الحديث ، لم تكن وليدة البيئة الاسلامية ، او المناخ الذى سيطرت عليه روح الاسلام . وانما كانت « مرضا » تطور الى « أزمة حضارية » أصابت جسم الحضارة الاوربية الذى نشأ ونما وترعرع بعيدا عن قوانين الله واوامره ، بل بعيدا عن سمات الروح والاواصر الإنسانية بوجه عام .

ونحن عند ما نضطر لمعالجة قضية كالمسألة الاجتماعية لا يجوز لنا اغفال هذه الطبيعة في الاسلام ، فلا نبتعد بالمشكلة عن جذورها ، ولا نفصلها عن الجسم الاسلامى المتزن المتكامل .

وفي إطار هذا التصور ، وانطلاقاً منه ، نبدأ في دراسة المسألة الاجتماعية .

طبيعة علاج المسألة الاجتماعية في الاسلام

لا توجد في التصور الاسلامي حواجز حقيقية بين الفرد والمجتمع ، فان الفرد يحس بأنه مسؤول مسؤولية مباشرة عن المجتمع ، والمجتمع ايضا يحس بأن عمل الاساسية وأركانه الطبيعية هم هؤلاء الأفراد المسلمون .

لقد انتمى الفرد المسلم الى هذا المجتمع بارادته ، ولقد انتسب اليه روحاً وفكراً ومشاعراً قبل أن ينتمى اليه جسداً .. أو عضواً عاملاً .

والرابطة الاولى بالتالي في المجتمع الاسلامي هي العقيدة المشتركة .. وما ينبثق عن هذه العقيدة من تصورات ونظم وقوانين اجتماعية واقتصادية وسياسية .

وهذه الرابطة الاولى — التي ارتضاها المسلم طواعية — تذيب الفواصل بينه وبين المجتمع ، وتشرعه بولاء ومسؤولية حقيقية تجاهه ، وتجاه ما يتعرض له المجتمع الاسلامي كله من مشكلات وتحديات .

والسبب الاكبر الذي نكب المجتمعات البشرية وكثف مشكلاتها في الجوانب المختلفة ، هو أنها نشأت كمجتمعات « اصطناعية » أو تلقائية ، وليست مجتمعات طبيعية قائمة على الاختيار القوي والتوافق الفكري والعقدي .

ومن هنا ، تظهر في احشائها بين الحين والحين امراض متنوعة ، مرة اجتماعية ، ومرة اقتصادية ، ومرة سياسية ، ومرة حضارية شاملة تهدد بناءها كله ، وتعرضها للتحلل والضياع .

والمسألة الاجتماعية ، لم يقصد بها — حين ظهرت حديثاً (1) — مجرد تقعيد نظري هادئ للاسس الصالحة لقيام المجتمعات البشرية وتماسكها — في ظل تصور انساني عام — وانما قصد بها ، نتيجة لكونها محاولة للبحث عن علاج لازمة حضارية كما قلنا :

« تنظيم العلاقة التي تربط الفرد بالمجتمع ، وتمنع طغيان أحدهما على الآخر ، وتضع الاسس التي تضمن انسجام المجتمع أفراداً وطبقات ، وتتيح للجميع قدراً متكافئاً من الفرص والحقوق ، وتلزم الجميع أيضاً بقدر ملائم عادل من الواجبات » .

ولقد تطورت المسألة الاجتماعية — في ظل غلبة النزعة المادية ، وموت الروح الانسانية وذبول القيم الدينية في أوروبا ، واستعباد الآلة الصماء للانسان ، واقتتان الانسان بها — تطورت هذه المسألة فلم تعد مجرد قضية انسانية جزئية ، بل أصبحت مذهباً مستقلاً يرفعه أصحابه الى مستوى ما يعرف « بالايديولوجية » (2) تلك التي تشكل — في نظر أصحابها — نظرة كونية عامة ، وتفسر جميع الظواهر تفسيراً مادياً قاصراً (3) ، دون أن تلتفت الى الجوانب الكثيرة الاخرى الروحية والشعورية والاخلاقية التي تتشكل منها الحياة ، والتي لا يسمى الانسان انساناً ، ولا تسمى الحياة انسانية — الا بها .

ومنذ وجد الانسان على الارض والتفكير الاجتماعي يحتل جانباً كبيراً من اهتمامه ، وبالتأكيد فان هناك صلات وثيقة بين الجانب الاجتماعي والجوانب الانسانية الاخرى وعلى رأسها العقيدة الدينية .

ومعلوم ان النظم والعقائد التي سيطرت على بعض الحضارات كالفرعنة والافريقي (اليونان) والرومان ، قد اتجهت الى تقديس الملوك ، والخضوع لاستيادهم ، والايمان بالاساس الطبقي لتكوين المجتمع (4) ، وبالتالي ضاعت في هذه العقائد والنظم

- (1) نحن نتناول المسألة الاجتماعية في مرحلتها التي ظهرت فيها كثورة على الكنيسة والاقطاع بقيادة المفكرين الاجتماعيين والفلاسفة الخياليين والطبيين — اما الفكر الاجتماعي كفكر انساني فهو قديم يرجع الى شعور الانسان بأنه مدني بالطبع وبأنه كائن اجتماعي ، وليس تتبع هذا الفكر موضوع بحثنا ..
- (2) الايديولوجية : تستعمل بمعنى العقيدة والفكرة ، والعالم المأمول ، أو التنظيم المعين للحياة .
- (3) ومن النظريات الاجتماعية والاقتصادية التي جعلت من نفسها عقيدة المذاهب الاشتراكية والشيوعية
- (4) انظر — و — محمد البهي — في « طبقة المجتمع الاوربي » ص 11 .

حقوق الافراد والمجتمعات ، ووقفت في القمة طبقات الحكام والاشراف ورجال الكهانة ، بينما ضاعت فسي السفح — بلا حقوق — الطبقات الاخرى التي تمثل جماهير الشعب .

فلما ظهرت النصرانية ، لم تلبث بعد فترة قصيرة من ظهورها أن انحرفت بقيادة رجال الكنيسة فجرفت ما جاء به المسيح عليه السلام واصبحت وسيلة من وسائل كبت الانسان واذلاله وحرمانه وفرض الفقر والعبودية والجهل عليه . . ولم تعد اكثر من اداة هزيلة في يد الاقطاع ورجال الحكم ، فلا يجد الانسان في رحابها العدل ولا المساواة ، ولا يطمع في الاستعانة بها للوصول الى حقه في الحرية والكرامة الانسانية .

ولقد نجح « قسطنطين » اول حاكم روماني تظاهر باعتناق المسيحية — في تحويل المسيحية الى دين وثني مجرد من رسالة الروحية الصافية ، اذ كان يرمى — قبل كل شيء — الى ابتداع شعار ديني وثني تتميز به دولة الرومانية عن الامة الفارسية التي يقف منها موقف المحارب ، ويعمل على تحريك العواطف الشعبية ضدها .

ويصف القاضي عبد الجبار الهمذاني هذا الوضع الجديد للنصرانية على يد « قسطنطين » ، فيقول : « ان الروم ما تنصرت ولا اجابت المسيح ، بل ان النصارى ترومت ٥ وارتدت عن دين المسيح ، وعطلت اصوله وفروعه ، وصارت الى دين أعدائه ، وهو ما عليه هذه الطوائف الثلاث من النصارى . . فعلوا ذلك طلبا للرئاسة وعاجل الدنيا » (1) . . ولقد أدى هذا التحول النكد في المسيحية الى تسليط رجال الكنيسة التابسين فكريا للتقاليد الرومانية الوثنية على البؤساء والفقراء . . كما أدى هذا التحول — كرد فعل — الى بروز نزعات التغيير الاجتماعي في مطلع عصر النهضة الاوربية ، وهو اول بروز عملي للمسألة الاجتماعية بمعناها الحقيقي ، الى أن تطورت كمذهب في نهاية القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية .

ولقد قامت هذه النزعات على أساس اعلان الحرب على المسيحية والاعتقاد بأن الدين عموما — انطلاقا من تجربة المسيحية — يشجع على الظلم ،

ويتواطأ مع الاقوياء ويمعز عن تقديم الحلول الكافية « للمسألة الاجتماعية » !! وبالتالي كان معظم فلاسفة الاجتماع الاوربيين من المنكرين للاديان ، أمثال « جان جاك روسو » و « فولتير » و « فرنسيس بيكون » و « ديكارت » و « أوجست كونت » و « سبنسر » و « دور كايم » . بالإضافة الى زعماء المذاهب الفوضوية الاشتراكية من أمثال « توماس مور » و « برودون » و « توماس كامبانلا » و « مورلي » وغيرهم .

وباضطرار التطور « التكنولوجي » والاعتماد على الآلة ، كانت المشاكل تتفاقم بين أصحاب رعوس الاموال والعمال الذين أصبحوا نتيجة تزايد الاعتماد على الآلة عرضة للبؤس والتشرد .

وظل الامر يستفحل بين الملوك والعمال — في غيبة قانون الهي عادل — حتى انتهى الى « عنف دموي » بين الطبقات المختلفة ، فأخذت المسألة الاجتماعية شكلا حادا وخطيرا !! .

وقد استغل اليهود هذه الفرصة كعادتهم ، فركبوا الموجة المضطربة ووجهوها لمصالحهم ، وكرسوا جهودهم لتقنين هذا الاضطراب واشاعته في العالم فاخترعوا لذلك الوانا من المذاهب المادية من شيوعية ماركسية ، الى شيوعية لينينية ، الى اشتراكيات متعددة ، الى وجودية . . وكلها مذاهب وان اختلفت شكلا تلتقي مضمونا عند نقطة رفض النظرة الدينية العالية الشاملة ، واقامة الحياة على أساس الاحاد والصراع والتناقض .

خصائص المنهج الالهي في علاج المسألة الاجتماعية

عند دراستنا المنهج الالهي في علاج المسألة الاجتماعية يجب أن نستحضر في اذهاننا ما ذكرناه آنفا من أن المنهج الالهي كل لا يتجزأ ، وان علاج أي عضو في الجسم لا يعنى ان بقية الاعضاء بمنأى عن التأثير بقصة هذا العضو والتأثير فيها .

وفي ظل الوعي بهذه الحقيقة نستطيع أن نستنتج ان طبيعة المنهج الالهي في علاج المسألة الاجتماعية ترتكز على الحقائق التالية :

هو كائن انساني روى ، الى جانب ما فيه من جوانب مادية .

فالحرية الانسانية مثلا في نظر الاسلام لا تقل اهمية عن الجانب الاقتصادي .

وقتل حرية الانسان في مقابل توفير الخبز والملبس له انتكاسة حيوانية وردة انسانية ، وهبوط بالمستوى الذى وضع الله الانسان فيه (وهو ما فعله الشيوعيون والماديون بعمامة) .

وعلى اساس تحقيق الكفاية لكل جوانب الانسان من مادية ومعنوية تركز المبادئ الاسلامية في علاجها للمسألة الاجتماعية .

ثالثا : والاسلام كدين الهى لا يعترف بالنزعات العضوية او القومية او الطبقيّة ، او ما سوى ذلك من نزعات الصراع والتناقض ، بل يقيم تشريعاته على اساس الركنين الفطريين التاليين :

أ - وحدة الاصل ، غالبشر جميعا ينقسمون الى أب واحد وام واحدة وان اختلفوا جنسا ولونا ووطنا ، ولا ينبغي ان يكون اختلافهم هذا حائلا دون اخذهم حقوقهم الانسانية المشروعة (1) . قال تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. » (2) .

ب - وحدة العقيدة : وهى التوحيد الخالص الذى جاء به النبيون جميعا « ان الدين عند الله الاسلام » (3) . « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (4) . فهذا هو اساس القصيدة التى لا تبدل ، اما التشريع الذى ينظم حياة الجماعة فهو الذى يتطور فى الرسالات الالهية . حتى اذا جاء الاسلام فى صورته النهائية كان قد احتضن الفكرة الاساسية فى دين الله الواحد ، واستقى الصالح من المبادئ والتشريعات والنظم فى الرسالات السابقة ، واكمل الناقص منها واتمه (5) .

اولا : ان الخصائص التى تتميز بها الشريعة الاسلامية ، بل التصور الاسلامى كله ، تصدق على نظرة الاسلام للمسألة الاجتماعية .

● فاذا كان الاسلام دين سهولة وتدرج ووسطية وتوازن بين أنشطة الحياة المتوردة وجوانبها ، فان هذه السمات تتجلى ايضا فى تناول الاسلام للمسألة الاجتماعية اسلوبا وغاية .

● واذا كان الاسلام ديناً ربانيا صادرا عن قوة منزهة عن كل شرك ، وليس نظرية انسانية جزئية او ترغيبية ، فان هذه الحقيقة الدينية ستتجلى ايضا فى علاج الاسلام للمسألة الاجتماعية حين لا يقتصر العلاج الاسلامى على القوانين الجافة او السلوك الظاهرى ، وانما يتعدى ذلك الى تحريك عواطف الرحمة والحب والاخوة الانسانية وخشية الله ورضاه ، وصولا الى تحقيق مجتمع العدالة الاجتماعية الواقعية وليست العدالة النظرية المزيفة .

● واذا كان الاسلام يجمع بين الثبات والتطور ورسم لكل منهما اطاره ، ويجمع بين المثالية التى ينبغى ان ترنو اليها البشرية دائما ، والواقعية التى يسير عليها الناس غالبا . ويجمع ايضا بين الدنيا - اى الوجود المحدود - والاخرة - اى الوجود الممتد ، ويخاطب الانسان بالعبادات من داخله وينظم وجوده بالمعاملات من خارجه .

اذا كان الاسلام فى اسلوبه وتشريعاته كلها يجمع هذه الخصائص التى يعجز اى مذهب بشرى عن احداث التوفيق والانسجام والتعاون بينها ، فان هذه الخصائص تتجلى - ايضا وبالضرورة - فى علاجه للمسألة الاجتماعية .

ثانيا : ان الاسلام لا ينظر الى المسألة الاجتماعية كقضية ذات طابع مادى فقط ، فالانسان فى نظر الاسلام لا ينحصر فى دائرة الوجود المادى او الاقتصادى - كما يقول الماديون الجدليون - وانما

(1) انظر - عمر عودة الخطيب - لمحات فى الثقافة الاسلامية بتصرف ص 326 . وانظر العدالة الاجتماعية فى الاسلام للاستاذ سيد قطب ص 98 ط 7 .

(2) الحجرات 13 .

(3) آل عمران 19 .

(4) آل عمران 85 .

(5) عمر عودة الخطيب : « لمحات فى الثقافة الاسلامية » ص 328 بتصرف .